من أسرار العدالة الإلهية؛ وليس الذكر كالأنثى

د. باحمد بن محمد رفيس
شعبة العلوم الإسلامية / جامعة غرداية

ملخص

قد توحي النظرة التجزيئية إلى أحكام الشرع لأربابها بأن الشريعة امتهنت المرأة وحرمتها حقوقها؛ فألزمتها القرار في بيتها للقيام بزوجها وأولادها، وغمطتها حقها في الميراث، وفضلت عليها الرجل في كثير من الميادين. لكن الدارس لطبيعة الرجل والمرأة، والفروقِ الجسمية والوظيفية التي تؤهل كلاً منها لأداء المهام المنوطة به؛ تتبين له بجلاء عدالة الله تعالى وإنصافه للمرأة وللرجل على السواء. فالعدالة لا تعني المساواة في كل شيء بقدر ما هي إعطاء كل ذي حق حقه، وتكليفُ كل واحد بما يُسِّر له من واجبات. وقد أسهمت الكشوفات العلمية الحديثة، بخاصة ما تعلق منها بعلم الأعصاب الوظيفي والدراسات السوسيوسيكولوجية في إجلاء تلك الحكمة الربانية حتى لم يعد خافيا على ذي بصيرة أن المرأة لم تنل يومها حقوقها كاملة إلا في كنف الإسلام.

الكلمات المفتاحية: عدالة، مساواة، قوامة، تحرير المرأة، دورة، فروق جسمية، فيزيولوجيا، تغيّرات وظيفية، هرمونات، أوكسيتوسين، دماغ، إيماءات، حمض نووي، ترابط عضوي، دنا (ADN)، جسم ثفني (corpus callosum)، مهارات لفظية، نصف المخّ أيمن، نصف المخّ أيسر.

لطالما تعالت الأصوات منادية بضرورة تحرير المرأة من ربقة الأديان وتطالب بتحقيق مساواتها بالرجل في كلّ ميدان، **فهل المساواة تعني بالضرورة تحقيق العدالة، وهل تمنح تلك الحرية المنشودة في جميع الأحوال؟**

هذا هو الإشكال الذي يدور عليه البحث والذي يرتكز أساسا على إبراز الفروق الطبيعية التي ميَّز الله تعالى بها كلا من الرجل والمرأة فكانت مناط التكاليف والأحكام المتعلقة بهما.

إنّ المساواة لغة هي المماثلة والمعادلة[1]، "يُقال ساوَيْتُ هذا بذاك إذا رفعته حتى بلغ قدره ومبلغه"[2]. على خلاف التفاوت والاختلال في التوزيع والدرجات.

وهي في الاصطلاح بمعنى أن يتكافأ النّاس جميعاً في الحقوق والواجبات، دون تفرقة بسبب جنس أو طبقة أو مذهب أو حَسَب أو مال.

أمّا العدالة فهي في اللغة القصد في الأمور، والتوسّط بين الإفراط والتفريط، وهي ضِدَّ الجور[3]. واصطلاحا لها معانٍ منها: استعمال الأمور في مواضعها ووجوهها ومقاديرها؛ فهي إذن إقامة القسط بإعطاء كلّ ذي حق حقه، وهي "الإنصاف وإعطاء المرء ما له وأخذ ما عليه"[4]. وهو المعنى المستفاد من النصوص الشرعية.

يقول الشيخ الغزالي: "إن الذي يتدبر القرآن الكريم يحس المساواة العامة في الإنسانية بين الذكور والإناث، وأنه إذا أعطى الرجل حقا أكثر فلقاء واجب أثقل،

---

1 – أحمد الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (نشر المكتبة العلمية، بيروت، 298/1).

2 – تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الحسيني، (نشر دار الهداية، 325/38).

3 – محمد المناوي، التوقيف على مهمات التعريف، (نشر دار الفكر العام، بيروت، دار الفكر دمشق، ط1، 1410 تحقيق د. محمد رضوان الداية، 506/1).

4 – إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، (نشر دار الدعوة، تحقيق مجمع اللغة العربية، 588/1).

لا لتفضيل طائش"[1].

وجاء في كتاب مقاصد الشريعة وقضايا العصر: "إن اختلاف المرأة عن الرجل في بعض الأحكام ليس دليلا على أنها في نظر الشرع أدنى من الرجل، وإنما يرجع الاختلاف إلى اعتبارات موضوعية يقرُّها العدل، بل يفرضها فرضا. وليس من المقبول عقلا أن تتَّهم الشريعة الإسلامية بالتحيُّز للرجل ضد المرأة لا لشيء إلا لأنه ذكر وأنها أنثى. ولو صحَّ أن الشريعة تنتصر للرجل على حساب المرأة لأبقت على الأحكام الظالمة التي كانت تنال من حقوقها بل من إنسانيتها في الجاهلية"[2].

فالمرأة التي تنتابها الدورة كل شهر، مع ما تسبّبه لها من إرهاق ووهن، والتي تحمل، وتضع، وتربي، وترضِعُ في مدّة تزيد على الثلاثين شهراً، لا يمكن زَجُّها في ميادين العمل والجَلَد والكفاح لكسب العيش، ولا تكليفُها بتحمّل أعباء الاكتساب والإنفاق.

وعلاوة على ما هو ظاهر من الفروق الجسمية بين الرّجال والنساء؛ فإنّ العلماء ما يفتأون يكتشفون أسراراً أودعها الله تعالى في كلٍّ من الرَّجل والمرأة ليجعل كل واحدٍ منهما أقدر على أداء مهامه والقيام بواجباته التي فطره عليها سُبحانه[3]...

فقد جعل الله تعالى المرأة حاملاً للولد وحاضنة ومربية، وقيّض لها – لتقوم بهذه المهمة – أجهزة خاصة، بدءا بالرّحم وما يتصل به من لواحق، ذلك القرار المكين الذي أعده الله تعالى ليتخلّق فيه الجنين وينمو خلال أشهره الأولى، ثم يسر خروجه بعد ذلك إلى الدنيا ...

---

1 – محمد الغزالي: قضايا المرأة (دار الهناء، الجزائر، 1422هـ/2001م)، 35.

2 – عوض محمد عوض: مقصد العدل وصداه في التشريع الجنائي الإسلامي (مقاصد الشريعة وقضايا العصر، مجموعة بحوث)، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، القاهرة 2007م، 234.

3 – ينظر مثلا جيرالد هوتر: الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟ الفروق الفيسيولوجية والنفسية والتربوية (ترجمة د. علا عادل ود. سلمى سليمان ، ط1، نشر العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م).

قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾. (سورة عبس، 20).

ثم أعدّ له لبنا سائغا من ثدي أمّه فيه طعامُه وشرابهُ ومناعة جسم وتحصينه ضد الآفات والأمراض... وكلّ مقومات حياته.

ووهب الأمّ علاوة على ذلك عاطفة جيّاشة ورحمة وشفقة على ولدها، فهي تحنو عليه رغم ضُعفه وهوانه، وكثرة بكائه وإزعاجه، ولا ترضى أن يُمسّ ولو بالحرير كما يُقال.

ففيزيولوجيا يتعرّض جسم المرأة لتقلبات كثيرة حسب مرحلة نمو الجنين، وتطرأ عليه تغيّرات وظيفية لتلاءم مراحل تكوينه... فإذا خرج إلى الدنيا نشِطت هرمونات الإرضاع فيمتلئ ثدياها لبناً، وارتفعت نسبة هرمون الأوكسيتوسين[1] الذي يُعزّز الرابطة بين الأم والولد...

ومن غريب ما توصّل إليه العلم الحديث وجود قسمٍ من دماغ الأم لا ينشط إلاّ بعد أن تضع مولودها فيبدأ في العمل، ووظيفته متخصصة في فهم إشارات المولود الجديد. فالطفل في أيامه الأولى لا يستطيع أن يعبّر عن أحاسيسه بالحركات ولا بالكلام، إنّما بإيماءات وجهه وعينيه، والأم الوالدة هي وحدها القادرة على فهم تلك الإشارات بفضل ذلك الجزء من الدّماغ[2]. ولعل الأغرب من ذلك ما

---

1 – يفرز الأكسيتوسين بغزارة في جسم المرأة عند الوضع ليسهم في إحداث التقلصات الرحمية، ثم بعد الوضع يقوم هذا الهرمون بدور مهم في إفراز اللبن، وفي الوقت ذاته يعزز الرابطة القوية بين الأم وولدها، ما يجعلها أما حقيقية بكل المقاييس.

ينظر – Ema gauthier: Ocytocine, hormone de l'amour et du reste ; http://fr.lelo.com

2 – تؤكد الباحثة في علم الأعصاب وعلم النفس كاثرين إليسون، أن الدماغ لدى المرأة يتطور أثناء الحمل ويكتسب وظائف جديدة تمكنها من التواصل مع المولود الجديد؛

ينظر المزيد من التفصيل في كتاب: katherine Ellison: Le ceveau des mères, ou comment la maternité rend les femmes plus intelligentes ; éd : marabout, mars 2008, France.

توصل إليه باحثون من أن أجزاء من الحمض النووي للجنين تنتقل إلى دماغ الأم وتبقى قابعة فيه، موثِّقة الترابط العضوي بينها وبين مولودها، حتى غدت المقولة المعروفة: "إن الولد لا يفارق أبدا ذهن أمه" تفسَّر اليوم عضويا بوجود أقسام من الدنا (ADN) الخاصة بالولد بين ثنايا دماغ الأم[1]. وهذا يمعن في إعطاء الأم هذه الخصوصية دون غيرها من العالمين، فدماغها مجهز بوسائل استقبال خاصة تفهم بها إشارات مولودها، وبين خلاياها توجد بصمات وراثية لذلك المولود؛ ما يعزِّز رابطتهما، ويميز علاقتهما عن غيرها من العلاقات...

فالمرأة إذن ليست كالرجل بحال.

لقد جهّزها الله تعالى خصيصا لهذه المهمة النبيلة السامقة الجليلة، وأعظِم بها مهمَّة؛ جهَّزها لتحمل وتضع، وتربي وتحنو على مولودها، وتحميه من عوادي الزمان، وتنشئه على حسن الأخلاق والتقوى والصلاح...

هكذا أراد الله من المرأة بمجرَّد أن جعلها امرأة، واليوم يؤيد العلم الحديث هذا ويبرزه جليا لكل ذي بصيرة.

ومن جهة تكوين الدماغ يرى العلماء فروقا جليّة بين الجنسين، فمخّ المرأة في المتوسّط أصغر حجما من مخّ الرجل[2]، لكن القطعة البينية الرابطة بين نصفي كرة

---

1 - ينظر المقال العلمي المنشور في مجلة بلوزوان: William F. N. Et autres: Male Microchimerism in the Human Female Brain; 26 septembre 2012, France, http://www.plosone.org/.

2 - يفوق وزن مخ الرجل مخ المرأة بحوالي 150 غرام، ولم تعرف إلى الآن حكمة ذلك التفاوت.

ينظر- أنور حمدي: الدماغ، إبداع وإعجاز، ط1، نشر دار القلم، دمشق1421هـ/2000م، 159-164. تؤكد الباحثة في علم الأعصاب وعلم النفس أن الدماغ لدى المرأة يتطور أثناء الحمل ويكتسب وظائف جديدة تمكنها من التواصل مع المولود الجديد؛

ينظر المقال العلمي المنشور في مجلة بلوزوان: William F. N. Et autres: Male Microchimerism in the Human Female Brain; 26 septembre 2012, France, http://www.plosone.org/.

المخ لدى المرأة أكبر حجماً منها لدى الرّجل، وهذه القطعة الوسطى التي تسمّى الجسم الثفني (corpus callosum) هي المسؤولة عن إقامة التواصل بين النّاس، وهي التي تنطلق منها العواطف والمهارات اللفظية... وهذا يفسّر تفوّق المرأة في هذا المجال؛ فالمرأة ميّالة إلى التواصل، جيّاشة العواطف، شديدة الحساسية، تسارع إلى إقامة العلاقات وتهتمّ بالآخرين، وتنتبه لِمشاعر النّاس وأحاسيسهم ... على خلاف الرجل الذي تضعف لديه هذه المهارات إلاّ لِماماً[1].

ومن جهة أخرى يلاحظ العلماء طُغيان النصف الأيمن من مخّ المرأة على نشاط الدّماغ ... وهو القسم المكلّف بالألوان والأنغام والأشكال، والمخصّص للمشاعر والأحاسيس والجمال... بينما يتكفّل القسم الأيسر بالمنطق والحساب والإنجازات العملية والتّصاميم المكانية، وهو ما يبرع فيه الرّجُل لأنّ قسمه الأيسر هو المهيمن على نشاط دماغه على عكس المرأة[2].

---

1 – Janlou Chaput: Cerveau d'homme et cerveau de femme, le c âblage serait différent, http://www.futura-sciences.com/magazines/sante. Sébastien Bohler: Cerveau d'homme, cerveau de femme : les différences observées au scanner ; http://www.scilogs.fr/

2 – من محاضرة ألقاها الدكتور سيرج جانجر في عدة بلدان أوروبية وأمريكية بين 2001 و2002 ونشرت في:

- la Gazette des Psychothérapêutes professionnels, N° 2-3, juill. 2002, Moscou (en russe) ؛
- la revue Cultures en mouvement (Sciences de l'Homme) N° 53, déc-. 2002- jan. 2003, Antibes ؛
- le magazine Psychologies, N° 221, ju ill-août 2003, Paris ؛
- International Journal of Psychotherapy, Vol. 8, Nr 2, July 2003, UK, (en anglais) ؛
- Psychodrama and Modern Psychotherapy N° 3-4, July-Sept. 2003, Kiev (en russe)؛
- Forum of Psychiatry & Psychotherapy, tome 5, 2004, Lviv (en russe).

Serge Ginger : Cerveau féminin / Cerveau masculin, http://www.psycho-ressources.com/bibli/index.html

ومن هنا تأتي أهمّ الفروق التي أودعها الله تعالى بالخِلقة في كل من الجنسين، فبقدر ما تُولِي المرأة الأهمية للتفاصيل الدقيقة وتهتمّ بالجوانب الشّكلية الجمالية، وتُعطي الأولوية للتواصل والحديث مع النّاس، بقدر ما يحبس الرّجل نفسه في إنجازاته ومشاريعه العملية ويهتمّ بوظيفته، ولا يُولي نفس الاهتمام للتواصل والمناحي الفنّية والجمالية.

فالرجل مجهّز ليعمل ويُنجز ويصبر على ذلك ويكتسب، ثم ينفق ثمرة جهده على أهله وأولاده، وهو بذلك راضٍ مطمئن مستقر داخليا، لأنه يشعر بأنه يتماشى مع ما جبله الله عليه من فطرة ...

أمّا المرأة فحين تقرّ في بيتها وتعتني بأولادها وزوجها فهي تقوم بذلك بِشغف وإخلاص لأنه من صميم مؤهلاتها وطبيعة نفسها.

يقول سُبحانه: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ﴾. (النساء، 34).

لكن تنظيم العلاقة بينهما لابد أن يخضع للتشريع الإلهي لئلا يتعرَّض للشَّطط أو الغلُوِّ.

فما حقيقة القوامة؟ وما ضوابطها؟

مِلاك الأمر – والله أعلم – قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (البقرة، 228).

إذن للمرأة مثل ما للرجل، وبالمعروف أي بالإحسان أو بما يتعارف عليه الناس من الحقوق؛ ما لم يحلُّوا حراما أو يحرِّموا حلالا.

يقول الشيخ الشعراوي في تفسيره للآية[1]: " فكل منهما له حق على الآخر حسب طبيعته، الزوج يقدم للزوجة بعضاً من خدمات، والزوجة تقدم له خدمات

1 – الشعراوي: التفسير (مراجعة أحمد عمر هاشم، نشر أخبار اليوم، 1991م) 2/ 987.

مقابلة؛ لأن الحياة الزوجية مبنية على توزيع المسئوليات. إن الرجل عليه مسئوليات تقتضيها طبيعته كرجل، والمرأة عليها مسئوليات تحتمها طبيعتها كأنثى. والرجل مطالب بالكدح والسعي من أجل الإنفاق. والمرأة مطالبة بأن توفر للرجل البيت المناسب ليسكن إليها عندما يعود من مهمته في الحياة. ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (الروم، 21).

والسكن إلى شيء هو نقيض التحرك، ومعنى {لتسكنوا إِلَيْهَا} أي إنكم تتحركون من أجل الرزق طوال النهار ثم تعودون للراحة عند زوجاتكم، فالرجل عليه الحركة، والمرأة عليها أن تهيئ له حسن الإقامة، وجمال العشرة وحنان وعطف المعاملة. فالمسئوليات موزعة توزيعاً عادلاً، فهناك حق لك هو واجب على غيرك، وهناك حق لغيرك وهو واجب عليك".

والله سبحانه خاطب النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة، وجعل لهن ما عليهن، وقد بايع النبي ﷺ المؤمنات كما بايع المؤمنين، وأمرهنَّ الله بتعلّم الكتاب والحكمة، ولا فرق بين إنسانية الرجل والمرأة ابتداء.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾. (آل عمران 195).

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾. (النساء، 124).

ولكن للرجال عليهن درجة...

والدرجة تفسَّر بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾. (النساء 34).

يقول الإمام الرازي[1]: "إن الزوج اختص بأنواع من حقوق الزوجة، وهي التزام المهر والنفقة، والذب عنها، والقيام بمصالحها، ومنعها عن مواقع الآفات، فكان قيام المرأة بخدمة الرجل آكد وجوباً، رعاية لهذه الحقوق الزائدة. وهذا كما قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾. (النساء : 34)".

فلها الحق في عدم التكسب والإنفاق، أما الرجل فإن مؤهلاته تجعله مكلفا بالكسب والإنفاق لهذا قال تعالى: "وبما أنفقوا من أموالهم".

والقوَّام هو الذي يقوم على شأن شيء ويصلحه، وهي كلمة مشتقة من القيام المجازي الذي هو مجاز مرسل أو استعارة تمثيلية، لأنه شأن الذي يهتم بالأمر ويعتني به أي يقف ليدبر أمره. وقوَّام: فعال للمبالغة من القيام على الشيء والنظر فيه وحفظه بالاجتهاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً﴾. (آل عمران، 75). ﴿لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً﴾، أي حريصا ملازما مواظبا... ومنه القَوَام: العدل، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾. (الفرقان، 67)[2].

وقد أناط الله سبحانه هذه القِوامة التي هي غُرم وتكليف بالرجل لأمور:

- ﴿بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، لم يقل: "بما فضل الله الرجال على النساء"، لأن التفضيل متبادل، لكن طبيعة البشر خلقها الله هكذا: خلق للمرأة جسما غير جسم الرجل، واستعدادات غير استعدادات الرجل... لذا لم يكلِّفها

1 – محمد بن عمر بن الحسين الرازي: تفسير الفخر الرازى، نشر دار إحياء التراث العربى، 917/1.

2 – ينظر– ابن منظور: لسان العرب، ط1، نشر دار صادر، بيروت؛ 496/12. ابن الأثير: النهاية في غريب الأثر، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، نشر المكتبة العلمية، بيروت ، 1399هـ/ 1979م؛ 207/4.

بالإنفاق بعدما كلفها بالحمل والوضع والحضانة.

وهذا التخصيص لم يكن وليد اتفاق ولا نتيجة تغلُّب أحدهما على الآخر وقهرِه، بل نتيجة ما خلق الله تعالى في الرجال والنساء من مقومات ووظائف واستعدادات، فالرجل لا يمكن أن يختص بوظائف الأمومة، والمرأة لا يمكنها القيام بكل ما يقوم به الرجل؛ ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾. (النساء، 32).

وقد قيل إن هذه الآية نزلت في أمنا أم سلمة ض لما قالت: "أيغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث"[1]، فبين الله تعالى أن لكل نصيبا من عمله، فقد يكون ميراث المرأة النصف، لكنَّها تقبض المهر ولا تكلَّف بالإنفاق...

وما ورد في القرآن من إعطاء الرجل ضعفَ نصيب المرأة ليس على إطلاقه، فعند استقراء حالات ميراث المرأة يتبين أن الحالات التي ترث فيها نصفَ نصيب الرجل أقل من الحالات التي ترث فيها مثل نصيب الرجل أو أزيد منه[2].

فالحكم إذن منوط بالمؤهلات والتكاليف، والله تعالى جعل القوامة لأن الحياة الزوجية مؤسسة اجتماعية، وما من مؤسسة إلا ولها مسؤول.

يقول الشيخ الغزالي: "إذا كان البيت مؤسسة تربوية أو شركة اقتصادية، فلا بد له من رئيس. والرئاسة لا تلغي البتة الشورى والتفاهم وتبادل الرأي والبحث المخلص عن المصلحة. إن هذا قانون مطرد في شؤون الحياة كلها، فلماذا يستثنى

---

1 – ينظر– ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، ط2، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420ه /1999م، 286/2. ابن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشر مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 ه /2000 م، 262/8.

2 – ينظر البحث القيم للأستاذ محند عزوق: معايير التمايز في الميراث بين الذكر والأنثى، رسالة المسجد (مجلة محكمة تصدرها وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، السنة التاسعة، العدد الثالث، ربيع الأول 1432ه/ مارس 2011م) –70– 82.

منه البيت؟"[1].

ومن أوكد مهام القوامة الإنفاق؛ فالمرأة نفقتها على أبيها، كما قال سبحانه: ﴿وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. (البقرة، 233).

وبعد الزواج على زوجها: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ (الطلاق، 6). ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾. (الطلاق، 7). ﴿وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً﴾. (النساء، 4). ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾. (النساء، 24).

وقد جاءت الآية بصيغة: "وبما أنفقوا" للدلالة على أن الإنفاق كان من شأن الرجال منذ القديم، فهو مما تقتضيه الفطرة السليمة.

ولقد رتب الله تعالى أجرا على الإنفاق على الأهل: "دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ"[2].

لأنَّ البيت المسلم هو الذي يبني العقائد وينشئ الفضائل، والإنفاقُ عليه أبرك مشروع استثماري.

ولذلك يذهب بعض الفقهاء إلى إثبات حق الفسخ بالإعسار للزوجة[3].

---

1 – محمد الغزالي: قضايا المرأة (دار الهناء، الجزائر، 1422هـ/2001م)، 155.

2 – مسلم: صحيح مسلم، حديث رقم 995 (بترقيم عبد الباقي). أبو نعيم الأصبهاني: المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم (نشر دار الكتب العلمية، بيروت،1417هـ/1996م)، 80/3، حديث رقم 2241.

3– وهو مذهب الأئمة مالك والشافعي والظاهر من مذهب الإمام أحمد، خلافا لأبي حنيفة؛ ينظر– ابن نجيم: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، نشر دار المعرفة بيروت، 202/4. ابن

إذن ليس الذّكر كالأنثى بحال ...

ولقد أجرى العلماء تجارب جميلة ليبرزوا هذه الحقيقة الفطرية التي أقرّها الله تعالى في خلقه، فالأطفال في مراحل حياتهم الأولى وحتى قبل أن يتلقّواْ أيّ تعليم؛ يعرفون جنسهم جيدا، ويميّزون تمام التمييز بين رغباتهم المختلفة، فتجد الذّكور يفضّلون اللُّعب التي تعزّز الرجولة والقوة في أنفسهم، وتجد الإناث يفضّلن الدمى، ويُمضين الساعات الطوال وهنّ يُلاطفنها ويُحادثنها ويعتنين بها في تعبير واضح عن ذلك الميول إلى التواصل والعاطفة التي أودعها الله فيهنّ.

من هذه التجارب أنهم ألبسوا بناتٍ لباس الذكور وألبسوا صبيانا لباس البنات ثم تركوهم مع مربيات دون إعلامهن بحقيقة جنس أولئك الأطفال، فكانت المربية عندما تقدم للطفل – وهي تظنه بنتا – دميةً، يرميها بعيدا ويصرخ باكيا، وبالمقابل كانت البنات يرفضن اللَّعِب بلُعب الصبيان...

ومن أجمل التّجارب أنّهم طلبوا من جمعٍ غفير من رجالٍ ونساء، وأطفالٍ وبنات، جمعٍ يربو على مائتي شخص بأن يرسم كل واحدٍ منهم دراجة... فكُلُّ النساء تقريبًا –اللائي كُنَّ حضرن في التجربة– رسمن درَّاجة ناقصة التصميم، إمَّا ينقصها المقود أو الدوَّاسات... ينقصها شيء لا يُمكن أن تعمل الدراجة بدونه.

عابدين: حاشية رد المختار على الدر المختار، (نشر دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1421هـ/2000م)، 590/3. أبو الحسن التسولي: البهجة في شرح التحفة، (تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، ط1، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 ه/1998م)، 633/1.أبو محمد عبد الوهاب البغدادي: التلقين في الفقة المالكي (تحقيق: أبو أويس محمد التطواني، ط1، نشر دار الكتب العلمية، 1425هـ-2004م)، 119/1. أبو بكر الدمياطي: حاشية إعانة الطالبين، (نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت)، 336/3. الكتاب : أبو زكريا النووي: المجموع شرح المهذب، (من موقع مكتبة المسجد النبوي الشريف http://www.mktaba.org)، 267/18. الكتاب : ابن تيمية: المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (نشر مكتبة المعارف، الرياض، ط2، 1404هـ - 1984م)، 116/2. ابن قدامة المقدسي: المغني في فقه الإمام أحمد (نشر دار الفكر، بيروت، ط1، 1405هـ)، 374/7.

ولكن كلُّهن أيضًا رسمن شخصًا يركب الدراجة.

أمَّا الرجال فعلى العكس؛ لا أحد منهم رسم شخصًا على دراجته، لكنهم في الغالب رسموا دراجة تصلح للسير وفيها كلُّ المعدَّات. وكانت الفكرة التي استنبطها العلماء من هذه التجربة تبرز مدى اهتمام المرأة بالعواطف والتواصل، أما الرجل فيهتمُّ بالعمل و الإنجاز.

من هنا يكتسي الموضوع أهمّيته، فالله تعالى خلق الزوجين الذّكر والأنثى وأعطى لكلٍّ مقوّماته ومؤهلاته وقدراته ... فجعل على الرّجل العمل والإنفاق وقوامة البيت، وعلى المرأة حفظ بيتها ورعاية زوجها وتربية أولادها، ونحن نرى اليوم كيف انخدع ناسٌ كثيرون بدعاوى تسعى لإخراج المرأة من بيتها وإقحامها في ميادين العمل بجانب الرّجل، مع ما يُسبب لها ذلك من عنتٍ ومآسي، وما يُحدِث من اختلال توازنٍ في الأسر وفي المجتمعات بالتّبع.

والواقع يشهد اليوم كوارث ناجمة عن المكابرة في هذا المجال.

عندما ترجع المرأة إلى بيتها منهوكة القِوى، فإنه لن يكون سهلاً عليها أن تصبر على أبنائها ومتطلباتهم، وأن تتحمّل شكاواهم ونزاعاتهم ... وكم من حادث تعرّض فيها الأبناء إلى التعنيف والضرب والقهر من قِبَل أمَّهات تعرّضن في عملهن لضغوط ففرَّغْنَ شحنة الغضب على أولادهنّ. هذا علاوة على الإهمال والضياع الذي يتعرض له الأولاد ببُعد المربي الحقيقي الذي لا يمكن أن يعوض بغيره؛ الأم.

وكم من بيت تَقوّض بسبب الخلافات الزوجية نتيجة معاكسة هذه الفطرة الربّانية... ومجال الأمثلة يطول.

إنّ الطفل يحتاج إلى والديه، ولن يقوم أحدٌ مقامهما؛ فلا خادمة، ولا مربّية، ولا مدرسة، إذا فقد الولد أمّه، وهذا لا يماري فيه إلاّ من كابر عقله وكذّب حسَّهُ. والأم التي جهّزها الله بكلّ مقوّمات التربية تُعتبر ناكثة، ناكرةَ للجميل، كافرةً بالنّعمة، إذا تخلّت عن هذه المهمة واستبدلت بها غيرها.

وقد قال الله تعالى مستنكرا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾. (إبراهيم، 28).

حين ندرك هذه الأسرار البديعة التي أودعها الله تعالى في كلٍّ من الجنسين تتجلّى لنا حِكمته وعدالته، ويتبين لنا ما في أحكام الله وتشريعاته من عدالة مطلقة. فهو لا يكلّف بما لا يطاق: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة، 286)، ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ (سورة الطلاق، 7). وهو من جهة أخرى سيسأل كل راعٍ عمَّا استرعاه، ذلك لأنه قبل أن يُحمِّله مسؤولية رعايته منحه كل الآلات الضرورية للقيام بواجبه أحسن قِيامٍ.

ولابدّ أن يستفيق النّاس من غيّهم وأن يرجعوا إلى جادة الصواب، وينأوا بأنفسهم عن الانسياق الأهوج وراء كل ناعق بدعوى التمدّن والعصرنة والتقدّم والحضارة وما إلى ذلك من مصطلحات توضع في غير موضعها ...

ألقاب مملكة في غير موطنها كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

إنّ النّاس في الغرب بدأوا ينتبهون لهذا، وأخذت الأصوات تتعالى بضرورة ردّ الأمور إلى نصابها، وإرجاع المرأة إلى بيتِها لتقوم بوظيفتها، بخاصة لما بدا الخلل واضحا عندهم في مجال التربية والعناية بالأولاد وتركهم لأحضانِ مربيات أجنبيات عنهم، أو إسلامهم للشوارع والملاجئ، وما ينجرُّ عنها من آفات وشرور.

ونحن من خلال قرآننا وتعاليم ديننا بإمكاننا أن نقدّم للعالم التائه أنموذجا حيّا يردّ الشارد إلى الحوض، ويُرجع الأمور إلى نصابها كما أراده الله لها، فهو الخالق سبحانه وهو أدرى بما خلق.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. (الملك، 14).

والحمد لله رب العالمين